

أبو حامد الغزالي^{*}

٨

﴿ تكفير المقلدين له ورأيه في الردة والكفر ﴾

الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره
وشره من الله تعالى ، والاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله
وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحتج البيت أن استطعت إلى ذلك سبيلا .
هكذا فسرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن صدق عليه هذا التفسير كان مؤمنا
مسلمًا لا يخرج من الاسلام الا تكذيبه لشيء مما جاء به الرسول (ص) من أمر
الدين علما انه جاء به غير متاويل فيه . وما عدا ذلك من مخالفة احكام الدين
بالقول او الفعل او الاعتقاد بعد خطأ وسببه الغالب الجهل ومن الجهل ما يضر
صاحبه فيه كجهل الدقائق والامور الخفية ومنها ما لا يضر فيه الا اذا كان قريب
العهد بالاسلام كتحرير الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق
واقول على الله بغير علم ، والحساب على الله تعالى .

وقد مضت سنة النبي (ص) وصبرة اصحابه (رض) بحامي تكفير أحد
من يظهر الاسلام ويصلي إلى القبلة وان ظهرت عليه آيات النفاق وكانوا يذرون من
أخطأ في شيء من أمر دينه ويلطفون في تعليمه وما زال أمر المسلمين على هذه السنة
حتى ظهر فيها الابتداع وصار لأهل فرق وشيع يدعو إليها ويتأصلون دونها فكان
منهم أن كفروا من يخالفونهم فيما انفردوا به وإن كان المخالفون هم السواد الأعظم
الذين تقوا الدين بالقول والعمل وحافظوا عليه قبل ظهور تلك البدعة . وقد كان
من أمر أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أن قاتل الخوارج المبتدعين وصلى على

* تابع لما نشر في (ص ٨٣٣) من المجلد الثاني عشر

قتلاهم ولم يكفرهم بيدعتهم . فكان مما امتاز به أهل السنة والجماعة على أهل البدعة والفرقة أن أهل السنة لا يكفرون أحدا من أهل القبلة لأنهم يجمعون الكلمة ويتقون الفرق في الدين لشدة نهي كتاب الله عنه ووعيده لمن يفرقه . ولم تكن السنة مذهبيا ولا مذاهب لبعض المسلمين فيتعصبون لها على غير أهلها بل كان كبار العلماء كأئمة الفقه الأربعة وشيوخهم من السلف يمدحون كل من خالفهم في اجتihadهم ويصاون معه كما كان يفعل الصحابة (رضي)

ثم حدثت المذاهب في الجماعة المنسوبة إلى السنة فكانوا شيئا كل شيعة تنسب إلى إمام من العلماء الذين كانوا على السنة وتتعصب لما قل عنه وعن أتباعه وكل من انسب إليه ثم تفرجوا من التعصب للأسوء مذهبهم إلى تحطئة سواء من متبعي غيره من المذاهب المنسوبة إلى علماء السنة مثل مذهبهم ثم إلى التضييل ثم إلى التكفير لهم وللعلماء المستقلين إذا خالفوا مذهبهم وهم مع هذا يترفون بأنهم مقلدون وليس من شأن المقلد أن يبحث في تحطئة أحد لأنه تابع لغيره ولا علم له في نفسه وقد حدث من جراء هذه التعصبات فتن كثيرة سودت بها صحائف التاريخ

ان ظهور فتنه التكفير التي أحدثها أهل البدعة في المنفسين إلى السنة جعل مصابها عاما في المسلمين حتى كانت السبب في وقوف حركة العلم دون بلوغ غايته المرجوة فيهم بل في رجوعه القهري لأن الاشتغال به صار محصورا في قهيم كل جيل بعض كتب الأجيال التي قبله دون ان يكون له حكم مستقل في المسائل ومن لا يكون له حكم لا يكون له علم وهذا هو معنى ما نقل من اجماع سلفنا على ان المقلد لا يسمى عالما وعلى إطلاق أهل القرون الأولى لفظ العالم بمعنى المجتهد ولفظ الجاهل على المقلد وان قل الكتب بحثا وفهما . وكيف لا يرجع العلم القهري اذا كان من أنعم الله عليهم بالقراءة الذكية والاذهان القوذية لا يستطيعون ان يشكروا الله عليها باستعمالها في استنباط مسائل العلوم إما خوفا من تكفير الناس إياهم اذا هم جاءهم بغير ما وقف جهلهم عنده واما لا اعتقادهم أن ذلك من العبث لانه لا ينفع به أحد ، وان هم استعملوا عقولهم والحال ما ذكر فانها لا تأخذ حظها من الاستقلال ، ولا تبلغ الغاية في حلقة السباق ، ومن تعصبا جمل العالم فحطه عاشقا

(التأريخ ٧ م ١٣) الغزالي . انتقال بدعة التكفير في زمانه الى أهل السنة ٥٢٧

مستهترا ، لا يجد له من غرائبه مهربا ، فتم به في خلواته ، وحجب محاسنه عن
اصدقائه وعدائه ، فان اضطر الى الكلام ، لاذ بالكنيات والاشارات والألغاز ،
أصبوا الى الشرق ان كانت منازلها في جانب الغرب خوف القيل والقال
أقول في الخلد خال حين أنفها خوف الوشاة وما في الخلد من خال
ففي تفسير عقول عامة المسلمين بمبادي العلوم التاريخية فتعلم ان أصحاب
العلم من المقلدين الجاهلين ، قد اتخذوها عسكرا لمحاربة العلم والدين ، بتضليلهم
وتكفيرهم للعلماء المستقلين المصلحين ، وأنهم بذلك مخالفون لهدي السنة التي كان
عليها الأئمة الذين يدعون اتباعهم والانتساب اليهم لأن أولئك الأئمة متفقون على
عدم تكفير أحد يشهد بواحدية الله تعالى وبصدق رسوله محمد (ص) في جميع
ما جاء به عن ربه عز وجل وإن خالف في مباحثه ما هو المشهور عنهم بل وإن
خالف النصوص متأولا لا جاحدا ، وقد صرح بعض فقهاءهم بناء على ذلك الأصل
المجمع عليه عند السلف (عدم تكفير أحد من المسلمين) بأنه اذا وجد منه
قول قوي بكفر أحد وقول واحد ضعيف بإيمانه فيجب ان يبقى بهذا القول
وبحكم بإيمانه

بعد هذا التمهيد أقول إن أبا حامد الغزالي رحمه الله تعالى كان من أصحاب تلك
اللوذنية والفظانة التي لا يرضى من أوتيتها بكفر نعمتها وعدم استعمالها ، وإن بدعة
التكفير كانت قد انتقلت في زمانه من المبتدعة الى المتشيعين الى السنة ، وإنه حين
في أول عهده بالاستقلال في العلم عن إظهار ما حاف فيه اجتهاده ما عليه جمهور أهل
عصره ثم اظهر بعض ذلك في الأحياء مع المداواة ونوع من المجازاة ثم قوي دينه وكل
يقينه فصرح في بعض كتبه المختصرة (كالتقسيم المستقيم) بالمصرح بمثله في
الأحياء الذي ذم فيه التقليد في مواضع كثيرة وجرى فيه على تقليد الشافعي في أكثر
الاحكام أو جميعها

هاج ذلك منه أصحاب العلم ، وسكنة الآثواب المباحب ، وعجزوا عن مناظرته
فجردوا عليه سلاح الجهل والابتداع ، ورموه بالكفر والالحاد ، كما فعل أقاتهم وأضرابهم

الى الآن ، فلم يعأ بجعلهم ، ولم يرجع الى باطلهم ، ولا سكت عن إثارة الازمان ، بما وصل اليه من العلم والعرفان ، وهكذا كان المصلحون وهكذا يكونون ، الى ان تستنير العامة فتميز بين الملاء المستغنيين ، وبين الادعياء الجاهلين ، فيعود للامة الاسلامية مجدها ، وتطلع بعد الافول شمس سندها ، والعاقة لتقين ، وتعلمن بأه بهديهن ،

فصل التفرقة بين الاسلام والزندقة

كتاب وجيز كتبه في هذه المسألة ابو حامد رحمه الله تعالى جوابا لمن بلغه تكفير بعض المتعصبين إياه ، قال في أوله بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله وآله واصحابه مانعه

« أما بعد فاني رأيتك أيها الاخ المشفق ، والصاديق المتعصب ، موغرا الصدر منقسم المتكبر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين ، وإن العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شهر كفر ، ومبايشته ولو في شيء ، نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، وفل من غر بك قليلا ، « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جيلا ، « واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأني داع أكل وأعقل من سيد المرسلين ، (صلى الله عليه وسلم) وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأي كلام أجل وصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الاولين ، وإياك ان تشتغل بخصامهم ، وتعلمع في انحامهم ، فتعلمع في غير مطعم ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ، « اقبل

كل العداوات قد ترجى مودتها الا عداوة من عاداك من حسد ولو كان فيه مطعم لاحد من الناس ، لما تلي على أجلهم رتبة آيات الياس ، « اوما سمعت قوله تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استعلمت أن تبغني ففاني الارض أو سما في السماء فتأتيهم بآية « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين) وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون « قالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وقوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فليسموا بأيديهم

قال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة
وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كان ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن
أكثرهم يجهلون) » اهـ

أقول يريد أبو حامد رحمه الله تعالى أن مثل هؤلاء الشيوخ الحاسدين المتصيين
على تقليد الأشعري ككل أولئك المشركين لافي الشرك والكفر بل في الحسد
والتمصب وجعل همهم كله في إهانة من حسدوه وإظهار أنه على باطل وعدم توجيه
أذهانهم إلى فهم ما هو عليه والنظر في دليله بل توجيهها إلى مكابرة أو تأويله ، وهكذا
يفعل أشباههم في الحسد والتمصب اليوم : ندعوم إلى الكتاب والسنة ، ونطالبهم
بالآية والحجة ، فيأبون إلا التبر بالآقاب ، والهجر والسباب ، ثم ذكر أبو حامد
أن هؤلاء لم يبق فيهم استعداد لمعرفة الحق في الإيمان والكفر وعمل ذلك بقوله
« واني تجعلى امراة الملكوت قوم آلهم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبيلهم
دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم دعوتهم ، وارايتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم
خدمتهم اغنياءهم ، وذكرم وساوسهم ، وكثرهم مساوسهم ، وفكرهم استنباط الحيل
لما تقتضيه حشمتهم ، هؤلاء من أين تميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان » اهـ
ثم ذكر أن جل بضاعتهم في العلم البحث في التجاسة ، وما أشبه ذلك مما لا يحلو
بصيرة ، ولا يظهر سريرة »

زلزال المقلدين وشأنهم

بعد تلك القاطعة ذكر أبو حامد فصلا في حال المقلدين موجها الكلام إلى مخاطبه
قال : (فصل) فأما أنت اذا أردت أن تنزع هذه الحسكة من صدرك ، وصنع
من هو في حالك ، ممن لا تحركه غواية الحسد ، ولا قيده عناية التقليد ، بل تعطشه
إلى الاستبصار لحزارة اشكال اثارها في فكر وهيجا فطر . فخطب نفسك وصاحبك
وطالبه بجد الكفر فان زعم أن حدا الكفر ما يخالف مذهب الأشعري أو مذهب
المعتزلي أو مذهب الحنبلي أو غيرهم فاعلم انه غررٌ بليد ، قد قيده التقليد ، فهو أعمى

من العميان ، فلا تضع باصلاحه الزمان ، وناهيك حجة في الخامة ، مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، اذ لا يجدين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقا وفصلا .
ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب الى الاشعري ، وزعم ان مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي ، فأسأله من أين ثبت له ان الحق وقف عليه ؟ حتى قضى بكفر الباقلائي اذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائدا على الذات ولم صار الباقلائي اولى بالكفر بمخالفته الاشعري من الاشعري بمخالفته الباقلائي ؟ ولم صار الحق وتعالى أحدهما دون الثاني ، أكان ذلك لاجل السبق في الزمان ؟ فقد سبق الاشعري غيره من المعتزلة فليكن الحق لسابق عليه ، أم لاجل التفاوت في الفضل والعلم ؟ فبأي ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فان رخص الباقلائي في مخالفته فلم حجب على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلائي والكرائسي والقلانسي وغيرهم ؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وان زعم ان خلاف الباقلائي يرجع الى لفظ لا تحقيق ورواء كما تصف بكلفه بعض المتعصبين زاعما انها جميعا متواتقان على دوام الوجود والخلاف في أن ذلك يرجع الى الذات او الى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات ، وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات ، وانما يخالف الاشعري في أنه عالم وقادر بالذات او بصفة زائدة فما الفرق بين المخالفين ؟ وأي مطلب أجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى في النظر في نفيها وإثباتها ؟ فان قال انما اكفر المعتزلي لانه يزعم ان الذات الواحدة تصدر منها قائمة العلم والقنوة والحياة وهذه صفات مختلفة بالحد والحقيقة والحقائق المختلفة نستحيل ان توصف بالانحداد او تقوم مقامها الذات الواحدة فما باله لا يستبعد من الاشعري قوله ان الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحد (؟) هو توراة وأنجيل وزبور وقرآن وهو أمر ونهي وخبر واستخبار وهذه حقائق مختلفة وكيف لا وحد الخبر ما يتطرق اليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك الى الامر والنهي فكيف

تكون حقيقة واحدة تطرق اليها التصديق والتكذيب ولا تطرق فيجتمع النفي والاثبات على شيء واحد فان تخط في جواب هذا او عجز عن كشف الغطاء فيه فاعلم انه ليس من أهل النظر وانما هو مقلد وشرط المقلد ان يسكت ويسكت عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ولو كان أهلاً له كان مستتباً نابهاً واماماً لا مأموماً فان خاض المقلد في الحاجة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب في حديد بارد، ومطالب لصلاح الفاسد، وهل يصالح المطار ما فسد الدهر، ولعلك ان انصفت علمت ان من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه فهو الى الكفر والتناقض اقرب. اما الكفر فلانه نزله منزلة النبي المصوم من الزلل الذي لا يثبت الايمان الا بموافقه، ولا يلزم الكفر الا بمخالفته، واما التناقض فهو ان كل واحد من النظار يوجب النظر وان لا ترى في ذلك الا ما رأيت وكل ما رأيت حجة وأي فرق بين من يقول قلدي في مجرد مذهبي وبين من يقول قلدي في مذهبي ودليلي جميعاً وهل هذا الا التناقض اهـ

أقول أعتبر بهذا من يجلون في هذا العصر ابا حامد ويهبرون عنه بالامام وحجة الاسلام فيكفون عن الطعن في العلماء المستقلين الذين يدعون الامة الى البصيرة في دينها والاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله (ص) ام يحملهم الحسد على الاصرار على الطعن فيهم وتغيير العامة منهم بذلك اللقب المقتوت عندهم (الاجتهاد) ويوهمونهم ان دعاة الكتاب والسنة يعمونهم من اتباع الائمة، والصواب الذي ينفهم من ذلك اولئك المقلدون الجاهلون الذين لم يتبعوا الائمة في الاهتداء بالكتاب والسنة ولا قرءوا كتبهم وانما يريدون ان تكون العامة وراءهم متبعة لهم والمستقلون لا يدعون احداً الى اتباعهم وتقليدكم في شيء قط وانما يدعونهم الى الرجوع الى الاصل

حد الكفر وتعيينه

قال أبو حامد: (فصل) لعلك تشتهي ان تعرف حد الكفر بعد ان تناقض عليك حدود اصناف المقلدين فاعلم ان شرح ذلك طويل ومدوكة غامض ولكني اعطيت علامة صحيحة فتطرد بها وتكسبها لتتخذها مطمح نظرك وترعوي بسببها عن

تكفير الفرق وتطويل الاسان في اهل الاسلام وانت اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بمول لا إله الا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول :

الكفر هو تكذيب الرسول عليه السلام في شيء مما جاء به والأيان تصديقه في جميع ما جاء به — الى أن قال في اجمال التفريع على هذا التعريف — فكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فلهذه العلامة المطردة المنكسة (فصل) اعلم ان الذي ذكرناه مع ظهوره تحت غور بل تحت كل الغور لأن كل فرقة تكفر مخالفا وتنسب الى تكذيب الرسول عليه السلام فالحنبلي يكفر الأشعري زاعما انه كذب الرسول في اثبات الفوق لله تعالى وفي الاستواء على العرش ، والأشعري يكفر زاعما انه مشبه وكذب الرسول في انه ليس كمثل شيء ، والأشعري يكفر المعتزلي زاعما انه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى وفي اثبات العلم والقدرة والصفات له ، والمعتزلي يكفر الأشعري زاعما ان اثبات الصفات تكفير للتدناء وتكذيب للرسول في التوحيد ولا ينجيك من هذه الورطة الا ان تعرف حد التكذيب والتصديق ومقتضيهما فيه فيكشف لك علو هذه الفرق واسرافها في تكفير بعضها بعضا

فأقول : التصديق انما يتطرق الى الخبر بل الى الخبر وحقيقته الاعتراف بوجوده ما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا ان للوجود خمس مراتب ولأجل الغفلة نسبت كل فرقة مخالفا الى التكذيب فان الوجود ذاتي وحسي وخيالي وعقلي وشعبي فمن اعترف بوجود ما اخبر الرسول عليه السلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق فلهذا شرح هذه الاصناف الخمسة ولتذكر امثالها في التأويلات :

اما الوجود الذاتي فهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة فيسمى اخذه ادراكا وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل المعروف الذي لا يعرف الا كثرون للوجود معنى سواء

وأما الوجود الحسي فهو ما يتمثل في القوة الباصرة من العين بما لا وجود له خارج العين فيكون موجودا في الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض الشقيظ اذ قد يتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة من حسه بل قد يتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صور جميلة محكية لجواهر الملائكة وينتهي اليهم الوحي والالهام بواسطة فيلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء ماطنهم كما قال تعالى (فتمثل لها بشرا سويا) وكما أنه عليه السلام رأى جبريل كثيرا ولكن ما رآه في صورته الأمرتين وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها وكما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد قال د من رأي في النوم قد رأي حقا فان الشيطان لا يتمثل بي ، ولا تكون رؤيته بمعنى انتقاله من روضة المدينة الى موضع النائم بل هي على سبيل وجوده في حس النائم فقط وسبب ذلك وسره طويل وقد شرحناه في بعض الكتب فان كنت لا تصدق به فصدق عينك فانك تأخذ قبا من نار كأنه نقطة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة قراء خطا من ثلو وتحركه حركة مستديرة قراء دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان في حرك لا في الخارج عن حرك لأن الموجود في الخارج هي نقطة في كل حال وانما تصبر خطا في اوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجودا في حالة واحدة وهو ثابت في مشاهدتك في حالة واحدة

وأما الوجود الخيالي فهو صورة هذه المحسوسات اذا غابت عن حرك فانك قدبر على ان تخترع في خيالك صورة فيل وفرس وان كنت مضاض عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته في دماغك لا في الخارج

وأما الوجود العقلي فهو ان يكون لشي روح وحقيقة ومعنى فينقى العقل مجرد معناه دون ان يثبت صورته في عقل أو حس أو خارج كالبد مثلا فان صورتها محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهي القدرة على البطش والقوة على البطش هي اليد العقلية ولانها صورة ولكن حقيقتها ما تنقش به العلوم وهذا يتلقاه العقل من غير ان يكون مقرونا بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية

واما الوجود الشبهي فهو أن لا يكون نفس الشيء موجودا لا بصورته ولا بحقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل ولكن يكون الموجود شيئا آخر يشبهه في خاصية من خواصه وصفة من صفاته وستفهم هذا إذا ذكرت لك مثاله في التأويلات فهذه مراتب وجود الاشياء

(فصل) اسح الآن امثلة هذه الدرجات في التأويلات . أما الوجود الذاتي فلا يحتاج الى مثال وهو الذي يجري على الظاهر ولا يتأول وهو الوجود المطلق الحقيقي وذلك كاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش والكروني والسموات السبع فانه يجري على ظاهره ولا يتأول اذ هذه اجسام موجودة في انفسها ادركت بالحس والخيال اولم تدرك

واما الوجود الحسي فأمثله في التأويلات كثيرة واقنع منها بمثالين : احدهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوتئ بالموت يوم القيامة في صورة كبش الملح فيخرج بين الجنة والنار » فان من قام عنده البرهان على ان الموت عرض او عدم عرض وأن قلب العرض جسما مستحيل غير مقدور ينزل الخبر على ان اهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون انه الموت ويكون ذلك موجودا في حسهم لا في الخارج ويكون سببا لحصول اليقين بالآس من الموت بعد ذلك اذ المذبح يبرئ منه ومن لم يقر عنده هذا البرهان فصاه يعتقد ان نفس الموت يتقلب كبشا في ذاته ويخرج

المثال الثاني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرضت على الجنة في عرض هذا الحائط » فن قام عنده البرهان على ان الاجسام لا تتداخل وان الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على ان نفس الجنة لم تنقل الى الحائط لكن تمثل للحس صورتها في الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع ان يشاهد مثال شيء كبير في جرم صغير كما نشاهد السماء في مرآة صغيرة ويكون ذلك ابصارا مفارقا مجرد تخيل صورة الجنة اذ تدرك التفرقة بين ان ترى صورة السماء في المرآة وبين ان تفضض عينيك فتدرك صورة السماء في المرآة على سبيل التخييل

واما الوجود الخيالي فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم « كأنني انظر الى يونس

ابن متى عليه عبادتان قَطُوتَتان يلي وتجييه الجبال والله تعالى يقول له ليكن يا يونس
والظاهر ان هذا إنباء عن تمثيل الصورة في خياله اذ كان وجود هذه الحالة سابقا
على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انعدم ذلك فلم يكن موجودا في الحالة
ولا يعد ان يقال ايضا تمثل هذا في حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد التام الصور
ولكن قوله (كأي انظر) يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر والفرص الفهم
بالمثال لا عين هذه الصورة وعلى الجملة فكل ما يمثل في محل الخيال فيتصور أن يمثل
في محل الابصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استعانة المشاهدة فيما
يتصور فيه التخييل

وأما الوجود العقلي فأنته كثيرة فاقع منها مثالين : أحدهما قوله صلى الله
عليه وسلم « آخر من يخرج من النار يسلي من الجنة عشرة امثال هذه الدنيا » فإن
ظاهر هذا يشير الى انه عشرة أمثالا بالطول والعرض والمساحة وهو تفاوت الحسي
والخيالي ثم قد يتعجب فيقول إن الجنة في السماء كما دلت عليه ظواهر الأخبار فكيف
تقسم السماء لعشرة امثال الدنيا والسماء ايضا من الدنيا وقد يقطع التأويل هذا السبب
فيقول المراد به تفاوت عقلي لا حسي ولا خيالي كما يقول مثلا هذه الجوهرة أضاعف
القرص أي في روح ألمالية وسنطا المدرك عقلا دون مساحتها المدركة بالحس والتخييل
المثال الثاني قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى خمر طينة آدم بيده
لويجين صباحا » فقد أثبت لله تعالى يدا ومن قام عنده البرهان على استعانة يده
لله تعالى هي جارية محسوسة أو متخيلة فانه ثبت لله سبحانه يدا روحانية عقلية أخصي
انه ثبت معنى اليد وحققتها وروحها دون صورتها ان روح اليد ومناخا ما به يبطش
ويضل ويسلي ويمنع والله تعالى يسلي ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه السلام
« أول ما خلق الله العقل قال - بك اعطي وبك أمتع - » ولا يمكن أن يكون
المراد بذلك العقل مرضا كما يعتقد المتكلمون إذ لا يمكن أن يكون العرض أول
مخلوق بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلا من حيث عقل
الاشياء بجوهره وذاته من غير حاجة الى تعلم وربما يسمى قلما باعتبار أنه تنقش به
حقائق العلوم في ألواح قلوب الانبياء والاولياء وسائر الملائكة وحيا وإلهاما فانه قد

٥٣٦ هـ حد التكذيب الذي به الكفر . قدم تكفير المؤول (المار ج ٧ م ١٣)

ورد في حديث آخر أن « أول ما خلق الله تعالى القلم » فإن لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض
الحديثان ويجوز أن يكون لشيء واحد أسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى مثلا
باعتبار ذاته وملكا باعتبار نسبه إلى الله تعالى في كونه واسطة بينه وبين المخلوق
وقلما باعتبار إضافته إلى ما يصدر منه من نفس المأمور بالإلهام والوحي كما يسمى جبريل
وروحا باعتبار ذاته وأمينا باعتبار ما أودع من الأسرار وذا مرة باعتبار قدرته وشديده
القوى باعتبار كمال قوته ومكينه عند ذي العرش باعتبار قرب منزله ومطاعا باعتبار
كونه متبرها في حق بعض الملائكة

وهذا القائل يكون قد أثبت قلما ويدا عقليا لا حسيا وخياليا وكذلك من
ذهب إلى أن اليد عبادة عن صفة لله تعالى إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه
المشككون

وأما الوجود الشبهي فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما
ورد في حق الله تعالى فإن الغضب مثلا حقيقة أنه غليان دم القلب لأرادة الانشفي
وهذا لا ينفك عن قصان وألم فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب
لله تعالى ثبوتها ذاتيا وحسيا وخياليا وعقليا نزهة على ثبوت صفة أخرى يصدر منها
ما يصدر من الغضب كإرادة العقاب والأرادة لا تناسب الغضب في حقيقة ذاته
ولكن في صفة من الصفات تقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الأيلام فهذه
درجات التأويلات

(فصل) اعلم أن كل من نزل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة
من هذه الدرجات فهو من المصدقين وإنما التكذيب أن ينفي جميع هذه المعاني
ويزعم أن ما قاله لا معنى له وإنما هو كذب محض وفرضه فيما قاله الشيطان أو مصلحة
الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقه

ولا يلزم كفر المؤولين ماداموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير إليه .
وكيف يزعم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه
فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمه الله عليه
وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازا أو استعارة

هو (٩) الوجود العقلي والوجود الشبهي والحسلي مضطر إليه وقائل به قد سمعت الثقة من أئمة الخطابة ببغداد يقولون ان احمد بن حنبل رحمه الله تعالى صرح بتأويل ثلاثة احاديث فقط احدها قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الاسود بين الله في الارض » والثاني قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » والثالث قوله صلى الله عليه وسلم « اني لا جد نفس الرحمن من قبل اليمين » فانظر الآن كيف اول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول - اليمين قبل في المادة قريبا الى صاحبها والحجر الاسود يقبل ايضا قريبا الى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه فسمي لذلك يمينا وهذا الوجود هو الذي سمي به الوجود الشبهي وهو ابد وجوه التأويل

فانظر كيف اضطر اليه ابد الناس عن التأويل وكذلك كما استحال عنده وجود الاصبعين لله تعالى حسا اذ من قش عن صدره لم يشاهد فيه اصبعين فتأوله على روح الاصبعين وهي الاصبع العقلية الروحانية أعني ان روح الاصبع ما به يقيس قلب الاشياء وقلب الانسان بين لمة الملك ولة الشيطان وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكفي بالاصبعين عنهما وانما اقتصر احمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الاحاديث الثلاثة لانه لم تظهر عنده الاستحالة الا في هذا القدر لانه لم يكن بمعاني النظر العقلي ولو امن بظهوره ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم تأوله، والاشعري والمعتزلي لزيادة بحسب تجاوزا الى تأويل ظواهر كثيرة وأقرب الناس الى الخطابة في أمور الآخرة الاشعرية وفقهم الله فاتهم قروا فيها اكثر الظواهر الايسر والمعتزلة أشد منهم توغلا في التأويلات ، وهم مع هذا - أعني الاشعرية - يضطرون ايضا الى تأويل أمور كما ذكرناه من قوله انه يوتى بالموت في صورة كبش الملح وكاورد من وزن الاعمال بالميزان فان الاشعري أول وزن الاعمال فقال : توزن صحائف الاعمال ويخلق الله فيها اوزانا بقدر درجات الاعمال - وعذاورد الى الوجود الشبهي

البعيد فإن الصعائف اجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على اعمال
هي اعراض فليس الموزون اذا العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل ،
والمعتزلي قال نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد
مقدار عمله وهو ابعد عن التعسف في التأويل بوزن الصعائف وليس الفرض تصحيح
احد التأولين بل ان تعلم ان كل فريق وان بالغ في ملازمة الظواهر فهو مضطر الى
التأويل إلا ان يجاوز الحد في الضاوة والتجاهل فيقول الحجر الاسود يمين تحقيقا ،
والموت وان كان عرضا فيستحيل فينتقل كبشا بطريق الاقلاب ، والاعمال وان
كانت اعراضا وقد حذمت فتنقل الى الميزان ويكون فيها اعراض هي الثقل ومن
يتنهي الى هذا الحد من الجهل قد انحط من رتبة العقل ، اهـ

باب المقالات

التعاون والتخاذل (*)

نحن في زمن قل فيه التعاون ، وهناك فيه التخاذلون ، سعدت فيه أم
بأعمال الجماعات ، وشقيت أم بأسرة الافراد ، فالأم فيه درجات بعضها فوق بعض
فأعلاها ما كثرت فيه الجماعات ، التعاون على الخير بقدر كثرة الخيرات ، ويلها
ما قلت فيه الجماعات فئاتها من الخيرات والمنافع ما فضلها به مافوقها ، ويعبر عن هذه
الأم بالأم الحية العزيزة ، والحياة والعزة فيها متفارقة - أو مقولة بالتشكيك كما يقول
المحققون - فلذلك يخاف ويرجو بعضها بعضا ، وآية أمة عاقلة تأمن ستة الله في
تأزع البقاء ، وطبع الأقرباء في الضعفاء ؟

(*) نقرأ هذه المقالة والتي فيها بحرمة الحضارة التي تصدر في الاستاة